الحكمة في شعر ابن نُباته السعدي

د. ذكرى محيي الدين حميد
كلية التربية للبنات – جامعة بغداد
Thekra.m@yahoo.com

الملخص

ابن نباته السعدي (٣٢٧–٤٠٥) هـ شاعر عباسي من شعراء القرن الرابع للهجرة عربي الاصل لم يشك احد في نسبه، نشأ في بغداد، وقد أشاد بشاعريته عدد من نقاد عصره والعصور اللاحقة [١].

له ديوان شعر يضم اغلب موضوعات الشعر العربي، وتتضمن بعضاً من هذه الموضوعات طائفة من (الحكم)، تطرق إليها بحثنا هذا، و حكمة ابن نباته وليدة الزمن واختبارات الحياة، وهي واسعة النطاق تشمل نواحي الحياة كلها، وتخاطب مجتمع القرن الرابع للهجرة الذي تميز بعدم الاستقرار وكثرة التناقصات وسيطرة العنصر الاجنبي على مقاليد الحكم، ويمثل ابن نباتة في حكمته فئة المؤمنين بالحياة، والقضاء والقدر، وبالله سبحانه وتعالى، والمتمسكين بالفضيلة الشخصية والاجتماعية، من وفاء وقناعة واقدام وبذل وعطاء. والتمسك بالقيم الاجتماعية والحفاظ عليها، فضلاً عن ما سمعه من افواه الناس، فكانت حكمته، وليدة العقل الهادئ الذي يرقب الاحوال الناس ويستخلص الدروس التي توصل إلى سعادة الحياة المدنية.

كلمات مفتاحية : الحكمة ، شعر ، ابن نباتة .

Wisdom in the poetry of Ibn Nabaat Saadi

Dr. Thekra Muha– Aldeen Hamied
College of Education for Women – University of Baghdad

Abstract

Ibn al-Saadi (٣٢٧-٤٠٥) is a poet of Abbasi poets of the fourth century of immigration Arab origin was not suspected of its proportions, grew up in Baghdad, and has praised his poet a number of critics of his era and subsequent years. It has a poetry book containing poetry poems included texts of wisdom, which wanted to reform society and adhere to social values and conservation was his wisdom born of the calm mind, which monitors the conditions of people and draw lessons that reach happiness.

Key words : wisdom ,potrey ,Ibn nibataa.

المقدمة

الحكمة: هي حقيقة إنسانية تعبر عن وجهه نظر قائلها، وهي خلاصة تجارب عميقة ومشاهدات دقيقة لكل ما يدور حوله من سلوكيات الناس وطبائعهم. والحكمة تكون دائماً على شكل جمل شديدة التركيز لكنها في الوقت ذاته شديدة الوضوح، لا تحتاج إلى عناء لفهمها، وتهدف الحكمة إلى النصح والإرشاد والموعظة، وتأتي تعبيراً عن تجربة ذاتية وعن طول تأمل وتبصر بأمور الحياة.

(والحِكَم) في عصور الأدب جميعها، تصلح لكل العصور، مثلما نجد أن (الحِكَم) في الثقافات الاجنبية تنطبق على المجتمعات كلها.

وبما ان الحياة قائمة على ثنائيات، (الخير والشر/ الفرح واليأس/ الشجاعة والجبن/ الحب والكره/ الخوف والطمأنينة)، فأن دور الحكمة يأتي للتحذير من الانزلاق في المتاهات، نتيجة الانفعالات، وقلة الخبرة في الحياة، لذلك يبرز دور الحكمة واهميتها في الدعوة إلى التسامح وتقوية العزائم، والإيمان بالله

وبحكمه، والحث على العلم والعمل وإشاعة الفضيلة في المجتمع والابتعاد عن الرذائل، ومواجهة الظلم وإشاعة الحق، وأن الفلسفة الأخلاقية القائمة عليها تتمثل في تمجيد الكرامة الإنسانية وعزة النفس مع اداته الذل في كل صورة، وهذا في الوقت ذاته خطاب تنويري للمجتمع.

ويزخر الشعر العربي بالحكم المستمدة من واقع الحياة العربية. فضلاً عن، دور الترجمة وما استمده الشعراء العرب من الكتب المترجمة الغنية بالأمثال والآداب فاقتبسوا منها ونظموا على منوالها.

وكان رجال الدين ينظمون الحكم، فضلاً عن كثير من الشعراء اللذين اشتهروا بالمجون والعبث، اللذين نظموا في الحكمة وفيها كثير من التقوى والزهد، مثل بشار بن برد ، أبي نؤاس ، في اواخر ايامهم بعد أن تابوا وملوا العبث.

وهناك فرقاً بين حكمة الشبان وحكمة الشيوخ، ، فالشبان يدعون إلى الملذات لأن العمر قصير بنظرهم، وهذا قليل في دواوين الشعراء.

لكن في الغالب نجد حكمة الشيوخ الذين يدعون بفعل تجارتهم وخبرتهم في الحياة إلى التأمل ويحذرون مما وراء الموت.

ولابد من الإشارة إلى أن الحكمة نادراً ما نجد لها قصائد مستقلة، ولكننا قد نجد مقطوعات لها، كما سنرى في بحثنا هذا ولكن في الغالب نجدها مبثوثة في اغراض الشعر جميعها.

الحكـمـة

- **لـغـةً :** حَكَم يحكُم حُكماً بينهم اي قضى، وحكم له وحكم عليه، والحكمة من العلم، والحكيم: العالم، وقد حَكُم بضم الكاف، اي صار حكيماً[٢]، انت حاولت ان تحكُما – حِكَمةً: صار حكيماً، والحكمة الكلام الموافق للحق، وفي الفلسفة، صواب الامر وسداده، قصيدة

حـكـيمـة: ذات حكمة، وأصل الحكمة المنع، فهي بمنزلة المانع من الفساد[٣].

- **اصطـلاحــاً:**

وردت الحكمة في القران الكريم موازية للوحي، في قوله تعالى:((ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ))[٤] والكتب السماوية في قوله تعالى: ((وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ))[٥]، و((يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ))[٦]و ((أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ))[٧].

ويرى الجرجاني ان الحكمة هي: الكلام المعقول المصون عن الحشو[٨]والحكمة هي الكمال الحاصل للنفس، الخارج من القوة الى الفعل بحسب القوانين، اي النظرية والعملية[٩]. والحكمة الأدبية: هي كلمات قصيرة موفرة بالمعاني، فضلاً عن كونها قوة ذاتية تتوجه الى الخير والنور جاعلة الانسان الحكيم قريباً من الملائكة[١٠].

اقسـام الحكـمـة

تقسم الحكمة إلى:

الحكمة النظرية والحكمة العملية:

ويقصد بالحكمة النظرية (الفلسفية)، التي يعرفها التهانوي: "هي علم بما لا يكون وجوده بقدرتنا واختيارنا وموضوعها هو الوجود الذي ليس وجوده بقدرتنا واختيارنا"[١١]. وتبحث في الوجود والخلق والتوحيد والنبوءة، والمعاد. وهذا ليس مجال بحثنا هذا.

الحكـمـة العمليـة:– هي "علم بما يكون وجوده بقدرتنا واختيارنا"[١٢]وتدور حول حدود حرية الاختيار البشري، اي تبحث مجموعة من القضايا الإنسانية والحياتية، وهي موضوعات لا تكون إلا بوجود الإنسان، كالقضايا الاجتماعية، والاخلاقية، والسياسية، وتهذيب النفس، وبناء المجتمع ويمكن أن نقسمها إلى قسمين:–

الحكمة الخلقية:- هدفها بناء المجتمع واصلاحه عن طريق بناء الإنسان وتهذيبه، وتقويم اخلاقه، وتنقيح طبائعه عن طريق نشر الفضيلة والحث عليها لتزكي النفوس، والكشف عن الرذائل وكيفية توقيها والأبتعاد عنها.

الحكمة السياسية:- هدفها يرتبط بالمجتمع والسياسة والحكم وترتبط بمصالح الجماعة التي تتشارك في ذلك المجتمع.

بواعث الحكمة في العصر العباسي الثاني

اولاً: طبقات المجتمع: يقسم مجتمع العصر العباسي الثاني بين ثلاث طبقات رئيسة، طبقة عليا وتشمل الخلفاء والوزراء والولاة والقادة ومن كبار رجال الدولة والاعيان واصحاب الاقطاع، وطبقة وسطى، تشمل رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع الممتازين، ثم طبقة دنيا تشمل العامة من اصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق والزراع فضلاً عن أهل الذمة وكانت الطبقة الأولى، تغرق في النعيم والهبات مما ولد فرقاً واسعاً بين طبقات المجتمع، لذا يمكن ان نُعّد هذا العامل من اهم العوامل التي ساعدت على تطور غرض الحكمة(١٣).

ثانياً: الحضارة والترف والملاهي: لقد تفنن الخلفاء والوزراء في بناء القصور وتأنقوا بزخارفها وملأوا حيطانها بالنقوش والصور وعلقوا الستائر الحريرية على شبابيكها، فضلاً عن البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر. وكانت صور القصور الباذخة مألوفة في هذا العصر ولاسيما في عصر المتوكل، فضلاً عن الحفلات الباذخة التي تداربها الكؤوس من الفضة والذهب ويحضرها الندماء، وكل هذا الترف والبذخ المفرط، كان يقابله طبقة من الشعب قتر عليها الرزق، فهي تعيش في ضنك وضيق شديد، "ولعل هذا هو السبب في أن الشعب لم يهتم اي اهتمام بما كان يجري في القصر من تحكم الاتراك في الخلفاء"(١٤) الذين أسس إلى سيطرة العنصر الاجنبي فيما بعد على الحكم وأسس لضعف الدولة الإسلامية ومحاربتها.

أما مجالس اللهو واللعب، فأن الخلفاء كانوا في مقدمة من يشغفون بضروب كثيرة من اللعب والهزل ومنها " تطاح الكباش والديكة"[١٥] وتواثب السباع والفيلة فضلاً عن لعبة الشطرنج والنرد(الطاولة).

ثالثاً:- تدهور الخلافة ومصائب الزمن التي اصابت المجتمع: شهد العصر العباسي الثاني بداية تدهور الخلافة واستيلاء الاقوام الاجنبية على مقاليد الحكم في عهد المعتصم ثم بدأت الدولة تضعف شيئاً فشيئاً وتتشتت عن طريق الثورات والحركات الدينية فيها، كثروة الزنج التي استمرت اربعة عشر عاماً ونحو أربعة اشهر منذ عام (٢٥٥هـ) ولغاية (٢٧٠هـ) وحركة القرامطة التي كانت في كر وفر وتسببت في كثير من الأذى للشعب حتى وفاة صاحب القرامطة عام (٣٣٢هـ) فضلاً عن كثير من المشكلات التي كانت تواجه الخلافة وأسست الى تدهور الخلافة وضعفها التي بانت ملامحها في القرن الرابع والخامس للهجرة، وما خلقته تلك الثورات والحركات من دمار أبكى الشعراء وكان دافعاً لهم على تأمل أحوال الزمن أمثال المتنبي والمعري وشمس الدين الكوفي وابن نباته السعدي وقادتهم الى استخلاص التجربة وتصويرها شعرياً.

الأمارات والدويلات

ضعفت الدولة العباسية وذهبت هيبتها بعد مقتل الخليفة المتوكل (٣٤٧ هـ)، وظهرت في هذه المرحلة إمارات و دويلات من الشرق والغرب انسلخت من جسد الدولة العباسية، وأصبح لها سلطاتها ونفوذها، وقوتها وسيطرتها وقوادها وجنودها، مثل السامانية فيما وراء النهر، والزيارية في جرجان، والغزنوية في افغانستان والهند والبويهية في فارس، والحمدانية في حلب والموصل والفاطمية في مصر، وعن طريق هذا التفكك والانحلال، ضعف مركز الخلافة، مما سهل للبويهين الفرصة للدخول إلى بغداد لتحقيق مآربهم والوصول إليها، فزحفوا إليها بجيوشهم، ومما زاد الأمر تعقيداً ترحيب الخليفة

المستكفي بالله (٣٣٣ هـ– ٣٣٤هـ)، ثم جاء بعدهم السلاجقة بقيادة طغرل بك واستقبله الخليفة القائم بأمر الله مبتدئين مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الدولة العباسية، ثم جاء الصليبيون في موجات متعاقبة بدءا من عام (٤٩٢) للهجرة، فأهلكوا الحرث والنسل واشاعوا الخراب والدمار في القرى والامصار، وقد وقف المسلمون بوجه تلك الحملات الصليبية، بشجاعة وصلابة، وقد رافقت هذه الحروب نهضة فكرية وثقافية وأدبية اغنت المكتبة العربية وتظافر شعراء كثر من ارجاء المعمورة كافة على مناصرة ومعاضدة الابطال، واظهار مناقبهم ورسم بطولاتهم في محاربة كل الاقوام الاجنبية التي حاولت السيطرة على مقاليد الحكم، لذا نجد أن (الحكمة) كانت حاضرة في ثنايا قصائد هؤلاء الشعراء وفي الاغراض جميعها وفي بعض الاحيان تكون على شكل مقطوعة او قصيدة قائمة بذاتها [١٦].

الحـركة الثقـافية والأدبـية في ظـل البيـئات الجـديدة

تنافست الدويلات المستقلة في استقطاب الأدباء والمفكرين والعلماء وغدق الاموال عليهم والصلات والهدايا، وكانوا غالبية هؤلاء الملوك والأمراء يتقنون اللغة العربية، ويحبون العلم والمعرفة، ونشطت حركة التأليف والتصنيف، فضلاً عن ازدهار نظم الشعر وازدهاره، وبرزت اسماء لامعة من هؤلاء، أبا منصور الثعالبي، الخطيب البغدادي، ابن الجوزي، أبا القاسم الزمخشري، سبق الدين الأموي، تاج الدين الكندي وغيرهم، ومن المعالم الفكرية في هذا العصر، كثرة المكتبات والتنافس في أنشائها واقتناء كتب كثيرة لخزائنهم، ومن المعالم ايضاً كثرة المدارس وازدهار صناعة الورق في العالم الإسلامي، وإن نسخ الكتب وبيعها شملت مختلف العلوم اللسانية و الشرعية والعقلية والفنون والطب والموسيقى والغناء والحيوان والنبات والتصوير والنقش، وكان لهذه الحركة الفكرية الثقافية دوراً بارزاً ومشجعاً لازدهار الحكمة التي تأثرت كثيراً في العلوم العقلية ولاسيما الفلسفة.

التـأكيد على المبـادئ والاخــلاق الســامية في المجتــمع

يُعّد شعر الحكمة، كردة فعل من الشعراء الحكماء، ليقدموا للناس خلاصة تجاربهم العقلية والخلقية التي قد تبصرهم عن ما هم فيه من انغماس في الترف والمجون والتهتك والشذوذ، وتفتح العقول الغافلة على سواد مصيرهم، فظهرت قصائد ومقطوعات لشعر الحكمة في كثير من القصائد ونجد ابيات الحكمة قد شغلت مساحة لابأس بها من القصيدة.

وبهذه العوامل او بعضها مضى الشعراء العباسيون يدعمون شعر الحكمة العربي بما يتلائم وحياتهم العقلية الخصبة، الذي تطور وكان امتداداً لما كان عليه في العصور الادبية التي سبقته.

الحـكــمــة في شــعر ابن نــباته السعـــدي

ابن نباته: هو ابو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن احمد بن نباته السعدي شاعر من شعراء القرن الرابع للهجرة، له ديوان شعر يضم اغلب الأغراض الشعرية ، وله شعر في الحكمة الذي يتجه نحو النصح والإرشاد، وإصلاح مجتمعة ، وضمن حكمته عقيدته ومذهبه في الحياة ، جاعلاً من الحكمة دستوراً لتهذيب الناس وحسن التصرف واملت عليه خبرته الواسعة في الحياة وشيخوخته الحكمية، أراءه الحكمية وزاد عليه، ما سمعه من افواه الناس وكانت حكمته وليدة الزمان والاختيار الشخصي والمجتمعي بعيداً عن ثورة العاطفة واندفاع الأهواء، وليدة العقل الهادئ الذي يرقب احوال الناس ويستخلص الدروس التي توصل إلى سعادة الإنسان العربي.

وقد أورد ابن نباته بعضاً من حكمة في مقطوعات وهذا ملمح من ملامح التغيير في هذا العصر بإفراد مقطوعة كاملة للحكمة، ينتقل فيها الشاعر من العفوية الى الناظم المعلم، يقول(١٧):

فَوِّقْ سِهامَكَ وارمِ النّجمَ عن عُرُضٍ فلســتَ أوَّلَ مَغرورٍ من الظَّنَنِ

وانـحتْ بفأسِكَ في سماءَ شاهقــةٍ لن تَنْحَتِ الفاسُ ما أعْيا على الزّمَنِ

ويقول[١٨]:

نعـلـل بالـدواء إذا مرضـــنا وهل يشفي من المـــوت الدواء
ونختار الطبيب ...وهـــل الطبيب يـؤخر مـا يقـدمـه القضـــاء
ومـا أنفـاسنـــا إلا حـسـاب ومـا حـركـتـنـا الافـنـاء

واراد بهذه الحكمة ان يؤمن الانسان بالاخرة وثوابها وعقابها وان الحياة طريق الى تلك الاخرة، وان الانسان خلق لكي يعيش في مجتمع يتفاعل واياه تفاعلاً انسانياً بعيداً عن القلق والاضطراب.. وفي مقطوعة أخرى، يقول[١٩] :

ركبنا اليها السيل في الليل مقبلاً ولايـركب الاهوال الا المخاطـر
تعـاف ونـأبى ان تسَام دنية وفي الجهل ان لم ينفع الحلم زاجر

ويقول[٢٠]:

صـن السر عـن كـل مستخبر وحاذر فما الحـزم غيـر الـذر
اسيــرك ســرك ان صنتــه وانــت اسيـر لـه ان ظهـر

ونلمح مظهراً أخر من مظاهر الحكمة في شعر ابن نباته السعدي الا وهو افتتاح بعض قصائده بالحكمة بعد ان اعتاد الشعراء افتتاح قصائدهم بالمقدمات الطللية او الغزلية، يقول[٢١] :

خليــلي لاتستعجــلا ودعاني وحلاً بدار الحزم وانتظراني
لـم يك هذا الدين سنـــة واحدٍ واصبح منه اليوم ماتريـان
تحـرق دوح الواديين بين شرارة ويجمع جد المرء بعد حـران

أراد الشاعر من مقدمته هذه أن يستمع المتلقي لقصيدة قدمت خلاصتها وموضوعها قبل احداثها، وكأنه يوجز لنا القصيدة في هذه الأبيات، وله مقدمة لقصيدة أخرى، يقول فيها[٢٢]:

انمـا النـاس من حـذار النـزال طلبوا الطعن بالرماح الطـوال
واستلانوا الطـراد اذا كان بين الـ ـكر والعز راحـة في القتـال

كـلـهـم يؤثـر الفـراغ ولايـعـ لـم ما في عـواقـب الاشغـال

ونسمع صوت الشاعر واضحاً مدوياً عن طريق حكمته التي أراد عن طريقها استثارة الهمم واستنهاض روح المواجهة والمجابهة للظلم والاستبداد، والمظهر الاخر من مظاهر الحكمة في سفر ابن نباته، توسط (الحِكمُ) في قصيدة المدح او الرثاء او حتى الغزل، وتأتي خلاصة لتجربة الشاعر الانسانية فضلاً عن كونها تخدم غرض القصيدة ومنها قوله[٢٣] :

ولايـرعى الامانـة يوسفي مـودته على حبـل الـذراع

اذا محـيت ضغائنه بعـذِر نبتن نبات انيـاب الآفـاعي

صنعتَ الذنب ثم أردت منه بأن يرعى حقوق الاصطناع

إذ وظف الشاعر قصة يوسف واخوانه في مكرهم وخبثهم لتكون شاهداً حياً في كل زمان ومكان على غدر ذوي الارحام ، وفي موضع آخر يقول[٢٤]:

واتـعب خلـق الله مـن زاد همـه وقصرعما تشتهي النفس وجده

وقوله[٢٥] :

فـاني لايـوافـقنـي خـليـل إذا قضـى مآربـه قـلانـي

أراد بهذه الحكمة أن الصديق لابدّ أن يكون صدوقاً في كل الاوقات لا أن تنتهي صحبته بانتهاء الحاجة للآخر.

وفي موضع آخر يقول[٢٦]:

وما تصنع الزغب القصار اذا نزت مع الزابل الخطار والصارم العضب

إذ اراد بها أن الإنسان الضعيف الذي شبهه بـ (بالزغب) لا يقوى على الوقوف بالوجه القوة التي اراد بها الحاكم الجائر الذي شبهه بـ (الزابل و الصارم).

ونلحظ ملحماً أخر وهو استيعاب وتأثره بالحركة الثقافية والعقلية عن طريق الكتب المترجمة وتأثر بعض شعراء العصر بالفلسفة اليونانية، وقد اشاد الشاعر في كثير من (حكَمِه) إلى أداب السلوك والصداقة والمشورة، ومنها قوله[٢٧]:

وكثير من الإشارة يغتا ل معاد الحديث بالتحريف

أراد بها التحريف في ما هو منقول اثناء الترجمة، أي أن الترجمة لا تكون حرفية عن الأصل بل لا بدّ أن يكون بها تحريف .

وقوله[٢٨] :

فقليلٌ من الكريم كثيـر وكثير مـن اللئيـم قليـل

وهنا إشارة واضحة إلى البعد الاجتماعي لعطاء الكريم (الكرم).

وقوله[٢٩] :

وكل فتى في الناس يظهر وده ظنين اذا لم تخبره المخابـر

أي أن التجربة هي التي تظهر معادن الناس ولا يظهر معدنهم كثرة التودد .

وقوله[٣٠] :

إلا أن عـين المرء عنوان قلبـه تخبر عن أسراره شاء ام ابي

وقوله[٣١] :

لينـدم من باع المذلة عرضـهُ فما العيش عندي بالمذلة طيب

في هذه الحكمة نداء للضمير الجمعي (المجتمع) أن يلتزم الحياء ويحافظ على سلوكياته المجتمعية الخاصة.

وقوله [٣٢] :

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كل مصقول الحديد يمانِ

أراد بها ليس كل جميل براق لامع هو حسن فالحديد اللامع يظهر للعيان وكأنه حجر ثمين ومن خلال م اتقدم نلحظ أن الشاعر قد انتقل من العفوية إلى النظم المعلم، الذي يجمع بين ثنايا ابياته ما وافق وزنه وثمن معناه. و نجد (حِكَم) اخرى مرتبطة بالتجربة الشعورية للقصيدة عموماً، وتأتي عفوية في سياق القصيدة، لها علاقة حيوية بكل مقام يكون فيه الشاعر، ومنها قوله[٣٣] :

حـذار من ام دفـر ما خـدعت الا غُمُـرْ

التحذير من الدنيا و الموت (ام دفر) لأنها خادعة مهما ادعت الجمال .

وقوله[٣٤] :

لا تـلق حد السيف مُستلماً فإنما الخـاسر للحاسـر

اي احذر وخذ الحيطة وتأهب ولا تأخذ الامور على محمل البساطة والقوة والاستهانة بقوة الاخر.

وقوله[٣٥] :

فكم من خليل ما تمنيت قربه فجربته حتى تمنيت بعده

يعطي في هذا البيت ملامح بعض الاصدقاء الذين خبرتهم التجربة الحياتية فيتمنى لو لم يصاحبهم لما بدر منهم من سوء .

وقوله[٣٦] :

تكدرت المودة والأخـــاء ومات الوصل واعتل الصفاء

وبدلت الخلائق واستحـالت فكـل محبـة فيها ريـاء

صورة واضحة للرياء والنفاق الاجتماعي الذي ساد مجتمع ذلك الزمن.

وقوله [٣٧] :

إن الوفاء وفاء لا يغيــره صرف الزمان بأدبار وأقبال أن الوفاء طبع في البشر لا تستطيع أهوال الحياة وشقاءها أن تبدله مهما كان. وقد تأتي أبيات الحكمة تلخص معنى الحياة وتجاربها العامة، في مظهر أخر من مظاهر الحكمة في نتاج الشاعر. ولا يأتي بها ابن نباته عفوية سطحية، وإنما لتهذب صميم العلاقات الانسانية وتحث على معالي الأخلاق والتطلع للأمل والتنبيه للمعاملات والحفاظ على الروابط المجتمعية والعلاقات بين الافراد ومنها، قوله[٣٨]:

ضغائن لو لم يحسن السيف داءها لضرت وهل شيء سوى السيف ينفع

وقوله[٣٩]:

من ذا يرد القضاء والقدر الـ مقدور عن حتمه اذا حتما
نهبت كعباً عن غيها فعصت معصية النصح يُورث الندما

وقوله[٤٠]:

لا تأمنن نبوة العدو وأن ناصح يوماً فغشه لغد
شيمة غدرٍ وان اخل بها كامنةً في طبعه الأسد

ترى نظريات علم النفس أن الخلائق جميعها دائماً ترجع إلى اصل طبائعها مهما حاولت أن تتخلى أو تشذب من اطباعها لذا فأن العدو مهما اظهر لك من ود فلابد في يوم من الأيام تطفو عداوته إلى السطح.

وقوله[٤١]:

ولا تحقرن عدواً رماك وان كان في ساعديه قصر
فان الحسام يجز الرقاب ويعجز عما تنال الابر
وينفع في الروع كيد الجبان كما لا يضر الشجاع الحذر

التحذير من الاستهانة بضعف الاخر والاستهانة بقدراته ولابد من الحذر في كل الأمور.

وقوله[٤٢]:

صبراً على نوب الزما ن وأن ابى القلب الجريح
فلكل شيء أخر اما جميل او قبيح

وقوله[٤٣]:

خف يا كريم على عرض يدنسه مقال كل سفيه لا يقاس بكا
ان الزجاجة مهما كسرت سُبكت وكم تكسر دُر ثم ما سبكا

التحذير من كلام (السفهاء) اي رمي المحصنات إذ شبهنن باللؤلؤ (در) اذا تحطم لا يرجع كما كان وهكذا (العرض) اي حرمة الكلام عن أعراض الناس.

وعلى العموم فأن الحكمة لدى ابن نباته ، إنما هي حكمة مقصودة تتصل بال صنعة واعمال الذهن وكد العقل، وأنها خلاصة تجربة الشاعر وتلخيص ذهني لحقائق إنسانية ورؤى الشاعر في المجتمع والحياة والناس، صاغها الشاعر، عن طريق قصائده حكماً، ولا نستطيع القول أنها تبتعد عن فنية الشعر، كما يرد لدى النقاد في كتاباتهم عن موضوع الحكمة، ومال ابن نباته إلى اسداء النصح والإرشاد وفي بعض الأحيان استثارة الهمم لاسيما وأننا نعلم أن ابن نباته كثيراً ما شكا الزمن وويلاته، ولم يكن ابن نباته شاعراً لاهياً عابثاً، كما وجدنا عليه بعض الشعراء اللذين، ذهبوا إلى الزهد والحكمة في شيخوختهم، وإنما نجد الحكمة في اغلب قصائده الشعرية، ذات معانٍ صيغت بألفاظ شعرية أدت وظيفتها في النص الشعري.

الخـــاتـــمـــة

قال الله تعالى في كتابه:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)(٤٤) .

لذا فأن الحكمة ضالة المؤمن، وقد وجد ابن نباته ضالته وقدمها الى ديوان الادب العربي وللحياة أجمع بنظراتها الأدبية الحكيمة المتأملة، وعن طريق استقصاء أبيات الحكمة في ديوان ابن نباته التي لم يتسع المجال لذكرها كلها، فأنها قائمة على التذوق والاستقصاء والتحليل، كالمنجم الثري الذي يحتاج من يستخرج كنوزه، ولا يكفي في هذا البحث الحديث عن أبيات الحكمة ومدى تأثيرها في سياق النص الشعري والوقوف عند مفرداتها ودلالاتها ولكن أوجزت الباحثة الرسالة (الخطاب) الذي بثه ابن نباته من خلال حكمته:

- إن الإنسان العاقل ، هو الذي ينتبه إلى الدنيا واحوالها لاسيما وأنها متقلبة لا تثبت على حال.
- وفي هذا المجتمع نوعان من الاخلاق، أخلاق اللئام القائمة على الكذب والخيانة والمذلة والربا، واخلاق الكرام التي تمتاز بالصدق والشجاعة والعفو عند المقدرة وهذه من شيم العرب.
- لا يسعى الإنسان إلى هدفه في الحياة الا عن طريق العمل والإقدام والحصول عليها بالقوة كالوحوش الكاسرة والطيور الجارحة وبحد السيف وهذا ليس بالغريب علينا فهي نتاج البيئة العربية، ولا تؤخذ بالحيلة والغدر والاستجداء.
- الصداقة الحقيقة للإنسان، أفضل من القرابة المزيقة واعتماد الإنسان على نفسه قيمة عليا.
- إن الإنسان يعيش مرة واحدة، فأما ان يحيا بالعز وشجاعة الفرسان وصواب الرأي واما أن لا يحيا دونها.

وهذه شذرات من حكمة ابن نباته ودورها في صقل وتهذيب الذوق في القرن الرابع والخامس للهجرة إلى جانب اغراض الشعر الأخرى، ولم أجد في كتب الادب العربي وكتب النقد من وقف عند هذا الغرض إلا اليسير منهم على الرغم من اهميته ومكانته التربوية والثقافية، ولا يخلو ديوان اي شاعر من شعر الحكمة لاسيما في العصر العباسي أجمع.

قائمة الهــوامــش

١. ينظر: يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر، ابي منصور الثعالبي،١: ٤٤٧ ووفيات الاعيان، ابن خلكان، ٣ :١٩٠.
٢. الصحاح ، الجوهري ، ٥ : ١٩٠١.
٣. ينظر لسان العرب، ابن منظور، مادة حكم، وينظر: التعريفات، الجرجاني ، ١٢٣.
٤. سورة الاسراء، الاية ٣٩.

٥. سورة البقرة، الاية ١٥١.
٦. سورة النساء، الاية ١١٣.
٧. سورة آل عمران، الاية ٤٨.
٨. ينظر: التعريفات، ١٢٤.
٩. ينظر كشاف اصطلاحات الفنون، ١ : ٥٣.
١٠.نهج البلاغة، ٩١.
١١.كشاف اصطلاحات الفنون، ١ : ٥ .
١٢.م . ن ، ١: ٥.
١٣.ينظر العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف، (٥٣ – ٥٤).
١٤.م . ن ، ٦٩.
١٥.مروج الذهب ، المسعودي ، ١٠٣:٤.
١٦.ينظر : الخلافة والدولة في العصر العباسي ، محمد حلمي محمد احمد، ١٧٤ .
١٧.ديوان ابن نباته السعدي ، دراسة وتحقيق عبد الامير مهدي حبيب الطائي ، ١ :٣٨٣.
١٨.م . ن ، ١ :٦١٠.
١٩.م . ن ،١: ٥.٧.
٢٠.م . ن ، ٢ : ٥٩١.
٢١.م . ن ، ١ : (٤٢٧ – ٤٢٨) .
٢٢.م . ن ، ١ : ٥٨٩.
٢٣.م . ن ، ٢ : ١٨٧.
٢٤.م . ن ، ٢: ٦٠٥.
٢٥.م . ن ، ١: ٣٢٩.
٢٦.م . ن ، ٢: ٩٠.
٢٧.م . ن : ٢ : ١٣٠.
٢٨.م .ن ، ٢ : ٩٤.
٢٩.م . ن ، ٢ : ٢٩٥.
٣٠.م . ن ، ١ : ٢٤٢.
٣١.م . ن ، ١ : ٣٤٣.

٣٢.م . ن ، ١ : ٤٣٠.
٣٣.م . ن :١ : ١٩٩.
٣٤.م . ن : ٢ : ٦٠.
٣٥.م . ن : ١ : ٣٣٨.
٣٦.م.ن ، ١ : (٦.٦–٦.٧).
٣٧.م . ن ، ٢ : ٥٩٣.
٣٨.م.ن، ٢ :٢٦.
٣٩.م.ن، ٢ :(٤٧٣– ٤٧٤).
٤٠.م.ن، ٢ :١٥٤.
٤١.م.ن، ٢ :٧٣.
٤٢.م.ن، ٢ :٦١٠.
٤٣.م.ن، ٢ :٦٢٢.
٤٤.سورة البقرة: الأية ٢٦٩.

قائمة المصادر والمراجع

- القران الكريم
- تاريخ الادب العربي (العصر العباسي الثاني)، د شوقي ضعيف، دار المعارف ، مصر /١٩٦٠.
- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت / ١٩٨٥.
- الخلافة والدولة في العصر العباسي، محمد حلمي محمد احمد، مطبعة الرسالة، القاهرة / ١٩٥٩ .
- ديوان ابن نباته السعدي، دراسة وتحقيق عبد الامير مهدي حبيب الطائي، ط ١ ، دار الحرية للطباعة، العراق / ١٩٧٧.
- الصحاح، اسماعيل بن حماد الجوهري ، ط ١، دار الكتاب العربي، مصر/ ١٩٥٦.
- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التها نوي، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت / ١٩٩٦.
- لسان العرب، ابن منظور، ط ١، دار احياء التراث العربي، بيروت/١٩٥٥.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، دار الاندلس للطباعة والنشر، بيروت / ١٩٦٦ .
- نهج البلاغة من كلام امير المؤمنيين علي بن ابي طالب (رضي الله عنه)، ضبطه د. صبحي الصالح، دار الاسوة للطباعة طهران / ١٤٢٤ هـ .
- يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر، ابو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري ت (٤٢٩) هـ ، تحقيق د . مفيد محمد قميحة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت/ ١٩ .